فلسفة سقراط*

رأينا [فيما سبق] أن هَمَّ الفلاسفة الذين سبقوا سقراط كان موجهًا إلى الكون ،وإيجاد السبب الأول الذى نشأ عنه واتخذ منه مظاهره المختلفة ؛وأتى من بعد هؤلاء السوفسطائيون الذين هدموا البحث الموضوعى بشكوكهم ووضعوا مكانه البحث الذاتى واتخذوه أساسًا يشيدون عليه قواعد الأخلاق وأسس العلوم ، وكان من نتيجة هذه الذاتية أن اضطربت نظريات الأخلاق وشُوِّهَت الحقائق ، فقد كان يصح فى نظرهم أن يقتنع الفرد بحقيقةٍ مّا ما دام يراها حقيقة ، ولو اختلف الناس معه وكان اختلافهم صوابًا وحكمة !

وانتهت هذه الفلسفة إلى سقراط ، فدرسها دراسةً عميقةً واستخلص منها فلسفة ، ولو أنها تَمُتُّ إلى الماضى بصلات قوية ، إلا أنها مغايرةٌ له فى أهم مظاهرها ، بل هى حد فاصل بينه وبين الفلسفات الإنسانية العظيمة التى تأسست عليها واستسقت منها ؛ وكانت طريقته فى نشرها أن يحاور الناس فى الطريق ، يتقدم إليهم متسائلاً متجاهلاً ، ثم يُشعرهم بجهلهم ويُدخل الشكَّ إلى قلوبهم ، وينتهى الحوار بأن يبذر فى

* مجلة المعرفة ، أكتوبر ١٩٣١م .

نفوسهم بذور المعرفة الصحيحة ؛ وهو فى كل محاوراته لا يبتعد بهم عما يتصل فى عقولهم من مسائل الحياة ، ذلك لأنه لم يكن يفرّق بين تعاليمه الفلسفية وبين الحياة نفسها .

وتختلف فلسفة سقراط عن فلسفة القدماء فى أنها تركت التجوال فيما وراء الطبيعة والتنقيب فى العماء الأول ، وهبطت إلى الأرض تتخلل نفس الإنسان . فأهم أغراضه أن يعرف نفسه ، ويعرف الفضيلة التى شغلت من أبحاثه المحل الأول ، وكان يفخر بجهله المظاهر الخارجية ، وينسب ما يُعزى إليه من تفوق عقلى إلى هذا الجهل .

وتختلف فلسفته كذلك عن فلسفة السوفسطائيين ، فقد اتخذ نفس الأساس الذى اتخذوا ليبنى عليه الحقائق ، إلا أنه وصل إلى نتائج مضادة تمام التضاد مع ما وصل إليه السفسطائيون . هم اتخذوا من الذاتية وسيلةً يهدمون بها الحقائق الخارجية ، واتخذها هو لتقرير الحقائق الخارجية . كان يسمو بالفكرة الفردية إلى مبدأ عام ثابت ، له حقيقته وله استقلاله عن عقول الأفراد ، وكان يصل إلى هذه الحقائق معتمدًا على الاستدلال والتعريف المنطقى ، وقد قال أرسطو : « مَأْثَرَتَانِ تعزوان إلى سقراط : وسيلة الاستدلال ، والتعريف المنطقى . . وهما اللذان بُنى عليهما العلم » .

ولكى نشرح تلك النقطة الهامة نقول : إن سقراط كان ينتقل فى محاورته من بحثٍ سلبىّ إلى بحث إيجابى ، كأنْ يسأل الناس كما يسأل

الجاهل المتعطش إلى المعرفة ، فإذا أفضوا إليه بما تحويه أدمغتهم من المعارف ، صب عليهم سيلاً من الأسئلة توقعهم بين الحيرة والارتباك ، وتكشف لهم عن جهلهم حقائق الأمور ، وتبين لهم أن من الأشياء ما يظهر سهلاً بسيطًا لا يحتاج لبحث ، وهو فى الواقع من أعقد الأمور وأعوصها . هذا هو الجزء السلبى ، وإن كثيرًا من محاورات سقراط التى وصلت إلينا عن طريق أفلاطون تنتهى عند هذا الحد .

وفى أثناء محادثته مع الذى يحاوره كانت تلوح له أفكار لم تكن تخطر له على بال ، فهو يناقش عدة أمثلة ، ويلاحظ ما بينها من تباين وتشابه ، واتصال وانقطاع ، ثم ينتهى به البحث والاستدلال إلى تقرير الفكرة العامة كالعدل والسعادة وغيرهما ، وهذا استدلال يرمى إلى تعريف منطقى شامل جامع مانع .

قال أرسطو : « اهتم سقراط بفحص طبيعة الفضيلة كأنه مسألةُ مسائلِ الفلسفة ، ولهذه الغاية سأل نفسه : ما العدل ؟ وما الإرادة ؟ لأنه كان يعتقد أن الفضيلة معرفة » .

ولما كانت الفكرة يصح اتخاذها مرشدًا لجميع الأعمال التى تصدر عن أجزائها ، كانت الفكرة هى الكائن الحقيقى للأشياء .

ولسقراط رأىٌ فى الأخلاق كان له أثر جليل فى العالم النظرى والعالم العملى ، كان يرى أن الفضيلة تنبع من المعرفة والعقل وحسن التمييز ،

فالفعل الذى بلا إدراك عَمَاءٌ يتناقض مع نفسه ، والفعل الذى باعثه الإدراك لابد آتٍ غايته ، وينبنى على ذلك أن ليس هنالك شر يقع مع الإدراك ، أو خير من غير الإدراك ؛ وإنما الإدراك الناقص هو الذى يهوى بالناس إلى أعماق الرذائل . . ومن هنا نشأ القول بأن الإنسان خَيِّرٌ بطبيعته ، وإنه يُساق لارتكاب الرذائل رغم إرادته ، ومن يفعل الشر ويصدر ذنبه عن معرفة وإدراك خير من الذى يفعله وهو يجهله ، لأنه فى هذه الحالة صنع الخير بلا معرفة ، أو بمعنى آخر : بلا فضيلة ؛ أما فى الحالة الأولى فقد أسىء استعمال الفضيلة ، ولكنها موجودة على كل حال .

وكانت نتيجة هذا الرأى منطقيًا هى إيجاد وحدة لجميع الفضائل ؛ ولما كان فعل الخير هو فى الواقع إدراك عقلى ، انتهينا إلى أن هذا الإدراك هو واحد مهما كان اتجاهه مصوبًا إلى أى موضوع من مواضيع الفضيلة .

وثمة نتيجة أخرى عملية ، وهى تعليم الفضيلة ما دامت معرفة ، وإمكان نشرها بين جميع الأفراد بالممارسة .

وهكذا وضع سقراط الحجر الأساسى لنظرية الأخلاق ، ولكنه لم يحاول السمو بها ؛ وكان يحاول الوصول إلى السعادة عن طريق الفضيلة ، ونهاية السعادة فى نظره أن يسمو فوق مطامع الحواس ، وأن يتحرر من الرغبات فيرتفع إلى مصاف الآلهة ، وأن يثق بقوة الروح .

وترى من وسيلة سقراط أنه لم تكن له مدرسة ، وإنما كان له تلاميذ ، وقد اختلف هؤلاء الأتباع فى فهم فلسفته إلى حد التناقض مع بعضهم البعض ، ومعهم ومع سقراط نفسه .

وقد أنشأ ثلاثة من هؤلاء الأتباع أهم المدارس ؛ الأولى : المدرسة الكلبية ، وتتفق تعاليمها مع تعاليم سقراط فى أن الفضيلةَ معرفةٌ يمكن تعليمها ، وهى مبنية على التخلص من الرغبات كلها حتى يُتَوَصَّلَ إلى السعادة ، وقد دعا ذلك بعض أتباعه إلى الانزواء عن العالم والإزراء بقوانينه وتعاليمه ، ومن أشهر هؤلاء ديوجونيس .

والثانية : المدرسة القورينائية ، ومؤسسها أرسطيبس ، وكان يقول : إن السعادة هى غاية الوجود ، وفهم منها أنها اللذة ، فكل ما يوصل إلى اللذة خير ، إلا أنه يلزم لذلك ألاّ يترك الإنسان لشهوته العنان فتتحكم فى نفسه .

والثالثة : المدرسة الميغارية . وقد عَرَّفَت الخير بأنه الكائن النقى ، فليس مذهبها إلا تعبيرًا سقراطيًّا طرأ على فكرة الإليين .

لم تتمم هذه المدارس فلسفة سقراط ، وإنما الذى تممها وزاد عليها وكَوَّنَ نظامًا فلسفيًّا عامًّا هو أفلاطون . ولنترك تلخيص فلسفته إلى مقال آخر .

obeikandl.com